

النحو دون تحديد، كما ذكر الزبيدي عن أبي بكر بن خابط المكفوف وما نسب لأبي الحسن مفرج بن مالك من علماء هذا القرن أنه شرح كتاب الكسائي، وكل هذا يؤكد أنهم كانوا معلمين لا علماء.

والظاهرة الثانية: أنهم حتى نهاية القرن الثالث لم يرد عنهم ما يشير إلى أنهم عرفوا كتاب سيبويه أو تدارسوه بينهم مع أنه قد عرف في المشرق منذ وقت طويل في تلك الفترة التي عرف فيها كتاب الكسائي، إذ شاءوا لأنفسهم أن يقتضروا على الأسهل والأخف، فنقلوا كتاب الكسائي في أواخر القرن الثاني، ثم عكفوا عليه بعد ذلك قرناً من الزمان. أما في القرن الرابع فقد اتخذت دراسة النحو واللغة طابعاً علمياً جاداً، وتحول التعليم إلى علم، واستبدل النقل بالتأليف، وظهر التخصص في دراسة اللغة والنحو بدل الجمع من كل فن بطرف ولهذا سبيان:

الأول: رحلة كبار علماء المشرق إلى الأندلس، وقيامهم بالتعليم والتأليف وعلى رأس هؤلاء أبو علي القالي الذي مكث في الأندلس من سنة ٣٣٠ هـ إلى سنة ٣٥٦ هـ، وهي مدة تقرب من ثلاثين عاماً، قام خلالها بالتحقيق والتأليف، ومن كتبه «الأمالي والبارع في اللغة والمقصود والممدود وكتابه فعلت وأفعلت». وأما الأمر الثاني فهو نقل كتاب سيبويه إلى الأندلس، وتداوله بين العلماء والعكوف على تفهمه ودراسته، فتحول الدارسون من النظر في النحو بطريقة سطحية إلى النظر العميق الجاد.

وعلى كل حال فقد تهيأت للأندلسيين منذ القرن الرابع أدوات الإنتاج العلمي الصحيح - من مرور فترة كافية للتضيغ اللغوي - والتفاعل مع غيرهم من علماء المشرق - والاطلاع على أهم كتوزهم في دراسات النحو واللغة، فبدأ منذ ذلك الوقت اتجاه جديد في دراسة اللغة عندهم والتأليف فيها.

وإذا كانت مؤلفاتهم منذ القرن الرابع تبدو فيها الجدية والعمق، فإن جهدهم فيها - بصورة عامة - لم يخرج عن كونه مجهوداً دراسياً أكثر منه إبداعاً علمياً.